تجليات ثقافة المقاومة في فكر محمد البشير الإبراهيمي وأدبه

د.يوسف العايب

جـامعة الوادي

ملخص:

أدّى الأدب الجزائـري دوره البطـولي الكبيـر فـي تحريـك الجمـاهير و دفعهـا للتعاطف مع الثورة، وتبني المقاومة كوسيلة حاضنة للأمل في التحرر والانعتاق وتحقيق حياة أفضل. وضمن هذا السياق تحاول هـذه الدراسـة أن تـستعرض دعـائم الرؤية المقاوماتية ،وكذا تجليات ثقافة المقاومة في فكر و أدب محمد البشير الإبراهيمي الذي يعد واحدا من أبرز أعلام هذا الأدب ، مركزة على رسوخ ذلك الفكر المقاوم في كتابات هذا الأخير، و بروزه كمعتقد وثقافة تـرفض كـل أشـكال القهـر و الاسـتيطان والهيمنـة ، وعلـى تميـز فلـسفته و فكـره الإصلاحي الرامي إلى رفض كل أشكال التغريب، والساعي إلى ترسيخ مقومات الأمة وثوابتها من خلال مخاطبة الذات الجزائرية ،وتـذكيرها بماضيها التليد وربطها بخصوصيات عمقها الحضاري و الثقافي و التراثي .

Abstract :

This article aims at finding out the foundations of the resisting view and the manifestations of the culture of resistance in Mohammed Al-Bachir Al-Ibrahimi thinking and literature. We will concentrate, first, on the establishment of that resistant thinking in his writings and the emergence of that thought as a creed that refuses all types of oppression and colonization. Our second focus will be on the distinction of Al-Ibrahimi reformation thinking whose aim was to refuse all sorts of westernization, in addition to consolidating the nation's components by calling the Algerian self, reminding it of its glorious past and linking it to the specificities of its civilizational and cultural deep heritage.

المقاومة بالنسبة للفرد و الجماعة تعبير صريح و ضمني في الآن ذاته عن إرادة الوجود و الحياة و الرغبة في تحقيق حضـور حرّ فاعل مستقل فيها . وإذ

المنارة للاستشارات

ww

تتخذ شكلها الرائد في العمل الثقافي والتعبئة السياسية فإن هذين العاملين المترافقين اللذين يكمل واحدهما الآخر يشكلان بدورهما أرضا خصبة تستولد المقاومة المسلحة و تحتضنها و تضمن لها استمرار مسيرتها وتحيطها بالضمانات [1] ذلك أن المؤطر الأساسي لمشروع المقاومة الشاملة هو مؤطر ثقافي بالدرجة الأولى ونجاح هذا الأخير مرهون بقدرته على استمالة و إقناع أكبر عدد ممكن من فئات الشعب وفي تخليقه لمفهوم جديد للوطنية و القومية .

وعلى هذا الأساس فإن المقاومة المسلحة في حقيقتها و في معناها الأعمق : " ليست قشرة ، هي ثمرة لزراعة ضاربة جذورها عميقا في الأرض وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير،و إرادة التحرير ليست سوى الناتج الطبيعي و المنطقي والحتمي للمقاومة في معناها الواسع: المقاومة على صعيد الرفض ، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور و المواقف".[2]

ولم يكن أدب المقاومة و ثقافتها – على وجه الخصوص – ظاهرة فريدة وطارئة على الحياة الأدبية و الفكرية و النضالية في الجزائر، ذلك أن هذه الظاهرة في اعتقادنا هي امتداد لمسيرة نضالية عربية أصيلة ومعاصرة ، فقد حفل تاريخ الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي خاصة تلك الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية و استمرت إلى غاية تاريخ إعلان الاستقلال ، وفي أقسى ظروف القمع و الاغتيال الثقافي و الاستبداد الفكري و الأسر المادي و المعنوي بنماذج تاريخية رائدة لثقافة المقاومة بكل ما تحمله تلك الثقافة من عناصر الوعي و الصمود و الثبات ،و بكل ما فيها من استمرار و تصاعد و عمق، و إذ أنتجت المعارك الطاحنة التي انتشرت في ربوع الجزائر أبطالا من طراز أحمد زبانا و جميلة بوحيرد و سي الحواس و العقيد لطفي، فإن أدب المقاومة قد أنتج بدوره أسماء من ذات الطراز لانزال نذكرها ويذكرها العربي عموما بكل فخر و اعتزاز من قبيل مفدي زكريا و محمد العيد آل خليفة و أحمد سحنون و محمد الشبوكي و الربيع بوشامة و عبد الرحمن العقون و عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي، وغيرهم من أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين تحدوا ظروف الاستعمار القاسية، و أتون الثورة الذي خبزوا فيه نتاجهم الفني والذي حدد دوره بنفسه على أنه سلاح ما في ذلك شك، و" لم تكن كفاءته بالنسبة إليهم إلا التزامه بدوره المقاوم الواعي "[3]، وهو ما يجعل من أمر رصد هذه المقاومة واستقصائها و كشف أعماقها ضرورة لا مفر منها حتى يكون بالإمكان أيضا فهم طبيعة الأرض التي أنبتتها و المناخ الذي غذاها و الشعب الذي باركها واحتضنها " ذلك أن الشكل الثقافي للمقاومة يطرح أهمية قصوى ليست أبدا أقل أهمية من المقاومة المسلحة ذاتها"[4]

ويتميز أدب المقاومة عموما بسمات نجملها فيما يأتي :[5]

المنارة للاستشارات
ww

-الإيمان بالشعب و الثقة بقدرته على اجتثاث الظلم و اليقين المطلق بانتصاره الآتي .

-تلونه بين التمرد و طلب الحرية للوطن وللفرد بحيث يختلط العام بالذاتي و الخاص .

-تكريم الشهادة و إبراز أهمية التضحيات التي قدمها الشهداء ليكونوا منارة تنير الطريق و يقتدي بها جيل كبير هو جيل المقاومة .

و قبل أن نخوض في الحديث عن المقاومة و تجلياتها في فكر محمد البشير الإبراهيمي يجدر بنا أن نقف في البداية عند الظروف و العوامل التي ساهمت في بعث ذلك الوعي السياسي و القومي في الجزائر ،والذي كان له أثر كبير في ظهور حس المقاومة الثقافية في كتابات الكثير من شعرائنا و أدبائنا .

إذ لم يكن أمام الشعب الجزائري المعروف بتاريخ نضاله الطويل وبعشقه للحرية و رفضه لكل دخيل من خيار وهو يتعرض لهجمات المسخ و التشويه والاستلاب من خيار سوى المقاومة ، فخاض في البداية مقاومة مسلحة دامت زهاء سبعين سنة في شكل ثورات مسلحة هنا و هناك في أرجاء الجزائر وفي أزمنة متباينة قدم خلالها الجزائريون آلاف الشهداء ،وقد أنهكت هذه الحرب الطويلة كاهل الشعب دون أن يحقق فيها ما يصبو إليه و" لأن قوانين الاستعمار رهيبة و تحصي الجزائريين أنفاسهم ،و تزجرهم عن القيام بأي عمل عدائي صريح ضد المستعمر قرر الشعب الجزائري أن يضع السلاح حتى يأخذ قسطا من الراحة و يستجمع قواه ، ويدرس تجارب الماضي "[6].

خلّف هذا الهدوء النسبي في أواخر القرن التاسع عشر نشاطا ثقافيا وتعليميا تمثل في استئناف بعض المدارس و المساجد و الزوايا مهامها واحتكاك بعض الجزائريين بالمدارس الفرنسية ،و ظهور جيل من المثقفين من ذوي الثقافة العربية ذات التوجه الإسلامي و نعني بهم جيل المحافظين، الذين سعوا إلى التعبير عن واقع الشعب الجزائري و الدفاع عن حقوقه بمقاومة الاستعمار بالوسائل السلمية كالصحف والنوادي والجمعيات .....[7]

و يمكن اعتبار تأثر بعض المثقفين الجزائريين بأفكار الحركة الإصلاحية التي ظهرت في المشرق الإسلامي من بين العوامل الأساسية الباعثة على تبلور مظاهر الوعي السياسي الوطني في الجزائر، يضاف إلى ذلك ما كان للحرب العالمية الأولى و انعكاساتها و أحداث المقاومة في المغرب و المشرق و أحداث سياسية أخرى عرفها العالم آنذاك من مساهمة لا يمكن إغفالها في تفسير و تعليل يقظة الشعب الجزائري و تطلعه إلى تحقيق مصيره ،خاصة " وأنّه أجبر على دفع ضريبة الدم في تلك الحرب الكبرى التي خاضها تحت راية دولة الاحتلال ،التي أعطته و عودا سخية بتحسين أوضاعه بعد نهاية تلك الحرب "[8]

المنارة للاستشارات
ww

وقد تبلورت الحركة الوطنية السياسية في الجزائر إثر ذلك في ثلاثة اتجاهات رئيسية : اتجاه استقلالي ثوري ،و مثله الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر ، و اتجاه إصلاحي ، و اتجاه إدماجي ، و سنركز حديثنا في هذا المقام على الاتجاه الإصلاحي الذي يعنينا و يخدم بحثنا هذا والذي يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أبرز ممثليه و دعاته .

ظهرت بوادر هذا الاتجاه في القرن العشرين ، و لم يكتسب صبغة كبرى إلا بعد منتصف العشرينيات ببروز أعلام النهضة و الإصلاح في الجزائر كابن باديس و الإبراهيمي و الطيب العقبي و العربي التبسي وغيرهم ، وكانت بداياته الأولى في الصحافة عبر جريدة المنتقد التي أنشأها ابن باديس و"التي أوقفتها الإدارة الاستعمارية بعد عددها الثامن عشر فعوضها بالشهاب "[9] ، وبعد حوالي ست سنوات وبهدف توحيد جهود العلماء العاملين في حقل الإصلاح تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 برئاسة الإمام عبد الحميد بن باديس ملخصة أهدافها في الآتي :

محاربة البدع و الخرافات التي ألصقها أهل الطرق بالإسلام و إحياء تعاليم الإسلام و حدوده في نفوس الناشئة ، وتعليم اللغة العربية و العمل على ترقيتها و حمايتها ، على اعتبار أنها لغة القرآن الذي سعى المستعمر إلى محاربته عن طريق تشويه لغته و محاولة طمس معالمها ، يضاف إلى ذلك كله العمل على ترسيخ مبادئ الهوية الوطنية التي أصبحت مهددة من طرف الاستعمار و دعاته ،ومن حملة لواء الإدماج و التجنيس " و هكذا يتضح جليا بأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي حركة دينية ثقافية في ظاهرها لم تكن تختلف عن الحركة السياسية الاستقلالية سوى في الوسائل ،فما كانت تقوم به من محاربة للطرقية ومعارضة لأفكار الإدماج والتنصير و نصرة اللغة العربية و القرآن الكريم، لا يمكن اعتباره إلا أكبر مخطط للنيل من الاستعمار وتقويضه، وهو الذي سعى إلى القضاء على مقومات الأمة الدينية والحضارية ، وهو ما أكده العدو الاستعماري ذاته حين أشارت إحدى الصحف الفرنسية إلى حقيقة العمل الإصلاحي في الجزائر، و طبيعة نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي يهدد كيان المستعمر بالقول:" و إن سياستهم الحاضرة تنحصر في الاعتصام بحصن الثقافة والدين ... وهذا يتيح لهم أن يتدخلوا في كل شيء منتظرين أن يتقدم في المستقبل الموعود رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه هم اليوم ويشحذونه بأيديهم ..."[10].

وقد سارت كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في هذا الاتجاه وشكلت -بحق -صراعا عنيفا بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان أحد أعضائها، و بين إدارة الاحتلال الفرنسي،وشمل هذا الصراع ميادين متنوعة أشرنا إليها آنفا منها ما يتعلق بحرية المعتقد، و منها ما يتعلق بحرية التعليم و منها ما يتعلق بالمحتل ذاته و جرائمه التي يرتكبها في حق الشعب الجزائري ، كما

المنارة للاستشارات
ww

مثلت كتاباته موقف الجمعية مما يجري في العالم العربي والإسلامي ، ووقوفها مع حق الأمم في تقرير مصيرها محاولة في الوقت ذاته إعادة بناء عنصر الثقة في الخطاب العربي الإسلامي ،و إعادة تشييد دعائمه العقائدية و الفكرية التي تكاد تغيب عنها شمس الإسلام و النور و الحق بفعل الاستعمار الذي ما فتئ يحاصرها ويسعى إلى طمس معالمها ، ثم إن تبني الشيخ الإبراهيمي ثقافة المقاومة أدى إلى تجديد خطابنا الثقافي العربي و الإسلامي..ذلك أنها ثقافة حقيقية جادة و مثمرة أثبتت جدارتها بتسخير قوى الشعب في الوقوف في وجه الطغيان ، وليست ثقافة هامشية لا تؤدي دورها السياسي المنوط بها ولا تسهم في بعث ثقافة التحرر و الانعتاق.

وبالعودة إلى فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي و أدبه ، نجد أن المقاومة كانت واحدة من مجموع السمات التي طبعت نتاجه، ففي عيون البصائر مثلا و التي " تعد أهم مرجعية لتاريخ المقاومة الثقافية والسياسية في الجزائر خصوصا و في الوطن العربي و الأمة الإسلامية بوجه عام" [11] ، نجد أن في كل مقال من مقالاتها تذكير بما كان يحدث في جميع الأوطان العربية و الإسلامية و في جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية و الدينية ، فقد كان لكلماته دوي بعيد المدى نبع من حزنه الشديد و ألمه على ما حل بالعرب و المسلمين من بوار و هوان ، وقد نبع إلى جانب ذلك من غيظه الشديد من الاستعمار، فسعى بشتى الطرق والوسائل السلمية المشروعة إلى تأليب المسلمين ضده ليقفوا في وجهه حماية لأوطانهم و تطهيرا لها من أدرانه ، وهاهو يعبر عن ذلك بقوله : **"لم يتسع وقتي للتأليف و الكتابة مع هذه الجهود الجبارة التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا و عملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده ، وصححت له دينه ولغته فأصبح عربيا مسلما ،وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا ، وحسبي هذا مقربا من رضا الرب و رضا الشعب "**[12]، ويؤكد هذا المنحى في فكر محمد البشير الإبراهيمي ما ذهب إليه عبد الرحمان شيبان في قوله : " كونه رجل ميدان أكثر منه رجل تأليف و تصنيف بحكم واقع أمته الذي فرض عليه الجهاد في جبهات كثيرة ، فهو من الذين شغلوا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب "[13].

وسنحاول فيما سيأتي أن نجلي هذه الثقافة المقاوماتية للشيخ الإبراهيمي و الوقوف عند أبرز دعائمها و مرتكزاتها.

دعائم الرؤية المقاوماتية وتجلياتها في مقالات محمد البشير الإبراهيمي:

انبرى قلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للدفاع عن ماضي الشعب الجزائري المجيد و إضاءة عمقه التاريخي و الحضاري من خلال تعريفه بذاته وتذكيره بسلفه و تراثه و ثقافته الأصيلة متخذا من أدبه أداة للمقاومة ، ومن المقاومة

المنارة للاستشارات
ww

ثقافة يجب ترسيخها و إرساء دعائمها بين أفراد شعبه مستنفرا كل طاقاتهم للدفاع عن مقومات الهوية لديهم سلاحه في ذلك الكلمة التي تحمل بين طياتها جملة من المعاني و القيم التي يعتز بها العربي على وجه العموم ، ويستميت عليها الجزائري ولايتنازل عنها في كل حال من الأحوال على وجه أخص،لاسيما في تلك المرحلة العصيبة من تاريخ الجزائر و تاريخ الأمة العربية ، فقد كانت كتابات الشيخ الإبراهيمي ثقافة تقود إلى الحقيقة ،و تبشّر بالنصر و تدافع عن الذات الجزائرية و ترفض كل أشكال التغريب و الهيمنة ، و هي ذات القضايا التي يؤمن به جل شعراء و أدباء المقاومة في الوطن العربي و يدافعون عنها، و هم إلى جانب ذلك كله يشتركون في كونهم جميعا :" لا يحتاجون كثيرا إلى منطقة الأشياء، وتعليلها حين يدعون إلى تبنيها ،لإيمانهم الذي يموقعهم في الواجهة دون مواربة ، و المحصن لهم فيه بزخم التراكم عبر الأجيال،والذي توارثوه جيلا عن جيل، ما يجعلهم يعتقدون أن لا حجب بينهم و بين الجماهير العربية ، وأن لا حاجة إلى ديبلوماسية أدبية،أو إغوائية فنية ، أو إغراء الجماهير ، و موقعتها في الخنادق التي ينبغي أن تشغلها " [14] ، ذلك أن طموحها من طموح الأديب وآمالها من آماله، وإيمانها بالقضية من إيمانه. و وفي هذا الصدد نجد الشيخ يقول : **"إن الاستعمار لا يؤمن بالله حتى نسأله الإنصاف لدينه الحق ولكنه يؤمن بالقوة ، فلنحذر عواقب الاغترار، فإن هذه الأمة في مجموعها قوة...قوة بعددها، و بالمعاني التي استيقظت فيها، و بإيمانها بحقها، وبتصميمها على استرجاعه، فإذا تعامى عن هذه القوات كلها فإن تقلبات الدهر ستفتح عينيه منها على ما يكره، وإن الله للظالمين لبالمرصاد"**[15].

و نظرة فاحصة في مقالات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ،تنبئ عن فكر حر مستنير يستند إلى فلسفة خاصة تشغل حيزا كبيرا من كتابات الشيخ ، إنها فلسفة الثورة و الجهاد و التعبئة الجماهيرية ومحاربة كل أشكال المسخ و التشويه و الاستلاب ،و تتمحور هذه الفلسفة في مجالين أساسيين شكلا قاعدة لفكره المقاوم ومرتكزا له ، هما الدفاع عن العروبة ونصرة الإسلام و التمكين لكليهما في أرض الجزائر ،ذلك أن الإبراهيمي قد خبر حقيقة المعركة التي يخوضها و شعبه ضد المحتل الغاضب ، والتي تكتسي طابعا حضاريا وعقائديا و وجوديا ، فسال مداده رقراقا متخذا من الكتابة الواعية و الالتزام الفني أداة لردع الغاصب المحتل، و دحر كل مخططاته التي شرع في تنفيذها منذ أن وطأت أقدامه النجسة أرض العروبة و الإسلام ، فجند الشيخ من زاويته كمثقف و أديب ومصلح كل طاقاته التعبيرية و إمكانياته الفكرية للتصدي لكل محاولات المسخ و التشويه للثقافة العربية الإسلامية وخصوصياتها. وهو ما حدا ببعضهم إلى رمي الشيخ بعديد التهم والافتراءات التي من بينها التعصب العرقي والتطرف الديني تشويها لمقاصده السامية ، ولأجل ذلك و دفاعا عن رؤيته و تصوره لمجتمع ديني متين الأركان قوي البنيان لا

المنارة للاستشارات
ww

تعصف به العواصف ولا تؤثر فيه الهزات سعى الشيخ الإبراهيمي إلى بناء مجتمع متشبث بأصوله الإسلامية وبتقاليده العربية العريقة ، وقادر على مقاومة الواقع الذي فرضه عليه الأجنبي المحتل، و الوقوف ضد فعل التشويه و التغريب ومواجهة الآخر والانتصار عليه .

وتبعا لكل ذلك فقد كانت مقاومة الإبراهيمي ذات طبيعة سياسية وطبيعة إصلاحية اجتماعية ، ففي مجال السياسة كتب الإبراهيمي مقالات عديدة و طويلة عن الاستعمار أفاض من خلالها الحديث في قضيتين بارزتين وأساسيتين ،أثارتا انشغال شعبه و مسّتاه من قريب هما : قضية فصل الدين عن الدولة و قضية التعليم العربي و الحكومة ، فقد كتب في الأولى أكثر من عشرين مقالة متسلسلة و كتب في الثانية أكثر من عشر مقالات ، زيادة عن تلك المقالات و الخطب الأخرى التي تحدث فيها عن حقيقة الاستعمار ومكائده و جرائمه[16].

وهاهو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يهاجم الاستعمار بكل شجاعة فيقول:" **و الاستعمار سلّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح ، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية وعبث بحرمة المعابد و حارب الإيمان بالإلحاد و الفضائل بحماية الرذائل والتعليم بإفشاء الأمية ، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير**"[17]، ثم يرد بكل جرأة عن المحتلين الذين يريدون للجزائر أن تكون قطعة من فرنسا، فيعلن قائلا : " **لو أن البحر الأبيض جف و التأمت حافتاه حتى أصبحت الجزائر ربضا من أرياض مرسيليا، لما كان لهذه الكلمة موضع في العقل مادامت تلك الفوارق قائمة ، ولو أن الجزائريين كفروا بالواحد وآمنوا بالثلاثة لما كان لهذه الكلمة موقع في النفس ما دامت سنن الله في ملكه جارية ... ولو أن المستعمر شرعها بالتسبيح في ناشئة الليل ،وجعل كفاء سماعها جزاء الأبرار لهدينا بالفطرة إلى الطيب من القول: وهو أن الجزائر ليست فرنسية ، ولن تكون فرنسية ، كلمات قالها أولنا ، ويقولها أخيرنا ، ومات عليها سلفنا و سيلقى الله عليها خلفنا**"[18].

إنه الالتزام الفني الواعي المسؤول الذي يدور حول محور أساسي ،هو التصدي الشجاع للمعركة القاسية الباهضة الثمن مع العدو المحتل الذي يجثم بكل أثقاله على صدر الوجود العربي في أرض الجزائر المحتلة .

و هذا البعد المقاوم في تجربة الشيخ البشير الإبراهيمي لا يقف عند حدود الجزائر فقط ، ذلك أن الشيخ يدرك أهمية عمق بلاده العربي، وأن قضيتها لا تنفصل عن قضايا أمته العربية ،إن لم تكن حجر الزاوية في قضاياها ، لذا فقد ألفينا ذلك الحس العروبي في كتاباته واضحا و جليا حين نعى أمته العظيمة وما لحق بها من هوان و صغار و ذل ،وما آل إليه أمرها من تراجع لا يليق بها ولا بتاريخها الحافل بالأمجاد و البطولات ، فطالت مقاومته إضافة إلى الأوضاع المحلية في

المنارة للاستشارات
ww

الجزائر أوضاع الوطن العربي والإسلامي السياسية و الاجتماعية ،فألفيناه يصوب قلمه نحو المغرب الأقصى و ليبيا و مصر و فلسطين و غيرها من البلدان العربية و الإسلامية " وقد خصص لذلك في كتابه"**عيون البصائر**"ثلاث مجموعات مقالية مطولة تحدث في الأولى عن جمعية العلماء والمغرب،وفي الثانية عن جمعية العلماء و فلسطين ، وفي الثالثة عن جمعية العلماء والشرق والإسلام ".[19]

وقف الإبراهيمي من قضية فلسطين موقف المجاهد الفذ الباسل الذي لا يهاب العدو، و سال مداده رقراقا غزيرا في شأنها ، وكتب فيها مالا يقل عن عشر مقالات ،سدد فيها سهام النقد إلى المتخاذلين من حكام العرب وشعوبهم مبصرا إياهم بخدع الصهاينة و المحتلين راسما لهم طريق الخلاص وسبل النجاة .ففي مقالته " **تصوير الفاجعة** " و بعد أن يثبت الشيخ وبالأدلة الدينية و التاريخية الدامغة نسبة فلسطين وانتمائها إلى أرض العروبة والإسلام ، و يسقط ادعاءات الصهاينة في نسبة البلاد إليهم يتوجه إلى العرب و المسلمين داعيا إياهم لنصرة فلسطين ناصحا إياهم بالاتحاد ونبذ الفرقة بينهم للتصدي للمحتل الصهيوني ودحر كل مخططاته ، فيقول :

" أيها العرب ،إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم وهممكم و أموالكم ووحدتكم ، وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم وإنما هي للعرب كلهم ، وليست حقوق العرب فيها تنال بأنها حق في نفسها وليست تنال بالهوينا و الضعف، وليست تنال بالشعريات والخطابيات وإنما تنال بالتصميم و الحزم والاتحاد و القوة"[20]. ولكي يؤكد الشيخ دين فلسطين على العرب و المسلمين وواجب نصرتها و استرجاعها من أيدي اليهود الغاصبين يعلن قائلا: **"إن فلسطين وديعة محمد عندنا وأمانة عمر في ذمتنا وعهد الإسلام في أعناقنا ، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون".**[21]

كما كان للشيخ موقف مما جرى في ليبيا و ما كابده شعبها من أهوال وهو يقارع العدو ، وكتب في شأنها مقالين ، الأول بعنوان :" ليبيا – موقعها منا-" [22]، و الثاني بعنوان : "ليبيا – ماذا يراد لها-"[23]، و قد أبدى من خلالهما تعاطفه مع قضية هذا البلد العربي مع الاحتلال، و حث الشعب الليبي على مواصلة النضال خصوصا وأن النصر لم يعد ببعيد ،مذكرا إياهم بشروط انتزاع الحرية ونيل الاستقلال وهي : " **الإيمان به مع التصميم، ثم العمل له مع الإصرار، ثم المحافظة عليه بعد تحصيله**"[24]، ثم يدعو الشيخ الابراهيمي كل الشعوب العربية من خلال مخاطبته لليبيين بنبذ الاختلاف و الفرقة في كل صغيرة وكبيرة من أمور الدين و الدنيا، لأن ذلك ما يسعى إلى إحلاله العدو، ومخططه الذي جاء من أجل تنفيذه في أراضي العرب والمسلمين،محذرا في ذات الوقت من عواقبه الوخيمة وتبعاته السلبية كالأنانية وعدم الاعتداد بالنفس ووهن العزائم وزعزعة الثقة بين أفراد المجتمع الواحد: **" أيها الليبيون : إن لكم إخوانا يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء... وإنهم يشاركونكم في الشدائد والمحن**

المنارة للاستشارات
ww

، كما شاركوكم في الألسنة و السحن ، و إنهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه، فانظروا في أي موضع وضعتكم الأقدار ؟ إنكم في موضع قدوة لشعوب ترجو ما ترجون ، وتعمل لما تعملون ،فاحذروا أن تكونوا قدوة في الهزيمة ، ومثالا لخيبة الأمل واقتلوا الألقاب تحيوا الحقائق..." [25]

وفي المجال الإصلاحي حمل الإبراهيمي على عاتقه مهمة ثقيلة تمثلت في تصحيح العقيدة وتربية أفراد المجتمع ،ودعوتهم إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه، ونشر الوعي بين الناس و تزويدهم بالعلم النافع و الفطنة وأساليب مواجهة التحديات التي تنتظرهم ،وأنفق في سبيل ذلك جهودا كبيرة و أوقات طويلة " فخلّف إنتاجا أدبيا إصلاحيا حيا راقيا أضاء السبيل للمصلحين بما سطره من فلسفة للإصلاح الديني ، وقطع الطريق على الطرقيين وأهل الضلال في الدين بما كشف من بدع المضلين ، وعرّى حقيقة أهل الطرق المبتدعين فأفحمهم حجة و أذاقهم مرارة الهزيمة والفضيحة ، وأنقذ الأمة من كثير من شرورهم ، إذ أعاد للإسلام صورته المشرقة و أوضح للناس حقيقته الناصعة الناظرة "[26].

ولم تقف كتابات البشير الإبراهيمي عند هذا الحد في المجال الإصلاحي، بل تعدته لتشمل مختلف مناحي الحياة فكان منها ما تعلق بقضايا التربية و التعليم و مستقبل الأمة و إعداد الناشئة لتحمل مسؤولية الرقي بها و صون مبادئها و عاداتها و تقاليدها ، ونذكر من المقالات التي اتخذت من تلك القضايا موضوعات لها " **إلى أبنائي الطلبة**" [27]"، " **اللغة العربية في الجزائر**"[28]"، " **حقوق الجيل الناشئ علينا**"[29]"، "**حقوق المعلمين الأحرار على الأمة**"[30].

وبعد هذا الذي أوردنا بخصوص مجالات المقاومة في أدب محمد البشير الإبراهيمي يمكن أن نخلص إلى القول بأن أدب المقاومة عند الشيخ قد جمع بين مسائل أساسية في اعتقادنا لا انفصام بينها و لا تغليب لواحدة منها على حساب الأخرى، فبين السياسة و الإصلاح و الجانب الاجتماعي خصوصا في الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر يلمس الدارس تداخلا كبيرا ، لذا ألفينا الشيخ الإبراهيمي يجمع بينها ويتناولها في كتاباته كمسألة واحدة متلاحمة الأجزاء لتقوم بمهمة المقاومة ، فعبّر عن موقفه المقاوم من خلال رفضه للخنوع و الخضوع ،مؤكدا على حق شعبه في الحرية و الاستقلال والحياة الكريمة ،مكرسا رؤيته الإصلاحية في الآن ذاته الداعمة لموقفه والمنادية بترسيخ ثوابت الأمة و المحافظة عليها، انطلاقا من مشروعه المقاوماتي الذي وهب له قلمه وفكره و أدبه من أجل النهوض به و التعريف به تحقيقا لأهدافه التي يأتي على رأسها نصرة دينه ووطنه وقوميته ، مخاطبا من خلاله الذات الجزائرية مستشعرا عظمة تاريخها الحافل بالأمجاد و تراثها الثقافي و الديني الذي يعتبره الشيخ أهم وسيلة بإمكانها الوقوف في وجه الغاصبين و التصدي لهم .

فقد أدرك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مخططات المحتل الغاشم وأساليبه في التعامل مع قضايا الوطن والعروبة، فراح يفضح نواياه و يجهض مشاريعه

المنارة للاستشارات
ww

الرامية إلى إلحاق الجزائر بفرنسا ،والقضاء على جميع مقومات هويتها الوطنية و إعدام انتمائها الحضاري و التاريخي إلى أرض العروبة والإسلام ،لذلك عمد الشيخ إلى الوقوف في وجه هذه السياسة الاستعمارية الغادرة عن طريق إعداد مشروع مقاوماتي، يطوق الخطاب الفكري و الثقافي والتعليمي في الجزائر ويحميه بجملة من المرتكزات التي ساهمت بقدر وفير في بلورة وبناء مظاهر وعي سياسي و وطني و ديني واجتماعي فطن متصدّ لحملات التغريب و التشويه ويقف في مواجهة مباشرة مع قيم الآخر وثقافته الغازية ،وقد ظهر هذا المشروع المقاوماتي كما مر معنا و تجلى في الآتي :

1-تصحيح العقيدة وإرساء دعائم الثقافة الإسلامية ونبذ الخلافات

ذلك أن الثقافة التي نشأ فيها الشيخ وشعبه ذات الصبغة الإسلامية القائمة على حفظ كتاب الله و تدارس سنة نبيه الكريم، إلى جانب تحصيل الكثير من علوم الدين كالتفسير والفقه وأصوله وعلوم الكلام ساهمت بقسط كبير في ترسيخ هذا الاتجاه ، فقد وعى الشيخ أهمية ومنزلة شريعة الله في قيادة هذه الأمة إلى شاطئ النجاة ومحافظتها على أسباب حياتها ووجودها ، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار دعوة الشيخ وإلحاحه على الاعتصام بكتاب الله و سنة نبيه لا يعدو إلا أن يكون في جوهره فعل مقاومة ، مقاومة الآخر الذي يسعى دوما إلى بسط نفوذه المطلق وسيطرته على الفكر الوطني والقومي والثقافة المحلية راميا إياها بالعقم والدونية والتعطيل والجمود ، باذلا في ذلك جهودا جبارة ، مستعملا كل الوسائل المشروعة و غير المشروعة . يقول الشيخ :" **إن آثار الاستعمار فينا هي التي جعلتنا سريعي التأثر بدواعي الفرقة ، وقد نجح في تفريقنا في الدنيويات لأنه يملك أسبابه فرجع إلى الدينيات يزيدنا فيها تفريقا على تفريق، فعلى الأمة أن تحذر هذه الفخاخ المنصوبة ، وأن ترجع إلى أحكام دينها وحكمه، وأن ترفع الخلاف بالرجوع إلى الحق**"[31].

لذلك ألفينا الشيخ الإبراهيمي يتخذ من هدي القرآن الكريم و سنة النبي الكريم وسيلة تثقيف و تربية و إرشاد و توجيه و أسلوب حياة وهاهو يدعو الناشئة إلى الاستمساك به في قوله :"**أي شباب الإسلام ..إنّ علتكم التي أعيت الأطباء ، واستعصت على حكمة الحكماء هي ضعف أخلاقكم، ووهن عزائمكم، فداووا الأخلاق بالقرآن تصلح وتستقم، وآسوا العزائم بالقرآن تقوى وتشتد**"[32].ذلك أن الشيخ أدرك تمام الإدراك أهمية التمسك بالقرآن الكريم و السير عل نهج السلف الصالح ،و دوره في تحقيق وجودنا الحضاري ماضيا و حاضرا و مستقبلا وفي ردّه على ثقافة الغزاة و الانتصار عليها بعدم الإقبال عليها ،حين تصبح العقيدة مقدسة في نفوس الأبناء لا تزعزعها العواصف و الأعاصير .يؤكد ذلك رده عل المستعمر الذي سعى إلى طمس معالم انتساب الشعب الجزائري إلى العروبة والإسلام في قوله : "**في هذا الوطن الجزائري شعب عربي مسلم ، ذو ميراث روحاني عريق، وهو الإسلام و آدابه و أخلاقه ، وذو ميراث مادي شاده أسلافه**

المنارة للاستشارات
ww

لحفظ ذلك التراث، وهو المساجد بهياكلها و أوقافها ، وذو منظومة من الفضائل العربية الشرقية متنقلة بالإرث الطبيعي من الأصول السامية إلى الفروع النامية لحفظ خصائصه الجنسية من التحلل و الإدغام"[33] ، وقد حاول الشيخ تجسيد و إرساء دعائم هذا السلوك في نفوس الناشئة و أفراد المجتمع من خلال سعيه الدؤوب إلى تجديد الخطاب الديني، و تخليصه مما علق به من الشوائب بالعودة إلى أصوله و منابعه الصافية .

2-العناية باللغة و التعليم :

كان ولوع الشيخ الإبراهيمي باللغة العربية وتقديسه لها شديدا كيف لا وهي لغة القرآن الكريم ورمز هوية الأمة وأساس وجودها الحضاري والتاريخي، و هو الذي وعى أكثر من غيره هذه الحقيقة و أدرك جيدا أن تطور الأمة من المحافظة على لغتها و النهوض بها ،وأن ضعفها من ضعف لغتها و عجزها عن مواكبة العصر ،كما أدرك أن الأمة حين تهمل لغتها تصبح تابعة لا متبوعة ،و منقادة لا قائدة ، ويكون من السهولة بمكان السيطرة عليها و إخضاعها لصالح الأخر حين يتأتى له بسط نفوذه بالانتصار للغته وإحلالها محل اللغة الأم للشعب المغلوب على أمره .

لذلك راح الشيخ يقاوم سطوة تلك اللغة المهيمنة –لغة المستعمر-ويهاجم أفكارها التي أخذت تدب في كثير من النفوس الضعيفة ، فبادر إلى الكتابة الصحفية في جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ردّا على مخططات المشروع الاستعماري الهدام، فدعا بلغة ثائرة مقاومة إلى التمسك باللغة الوطنية و المحافظة عليها و إتقان أساليبها وقواعدها والعمل على الاشتغال بكثرة المحفوظ منها تأكيدا على عروبة الجزائر من جهة ، ودحرا لمخططات المستعمر الذي سخر كل طاقاته لإحلال البربرية مكان اللغة العربية الرسمية في البلاد من جهة أخرى .

يقول الشيخ في معرض حديثه عن اللغة العربية :" **اللغة العربية في الجزائر ليست غريبة و لا دخيلة ، بل هي في دارها ، وبين حماتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل ، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ، ترحل برحيلهم و تقيم بإقامتهم** "[34]. وقد ورد ذلك في مستهل رده عن المستعمر الذي أخذ يناور و بكل دناءة و مكر موهما نفسه و طائفة من الأمة ، أن الجزائر مجموعة من الأجناس واللغات إسكاتا لأوفياء هذا الوطن وسخرية بهم حين سعى لإنصاف اللغة الأمازيغية و إكرام أهلها و ترديد حقيقة أصالتها في هذا الوطن ، وذلك من أجل التفرقة الشنيعة بين أبناء الوطن الواحد لاغير ، والقضاء على اللغة الرسمية و إحلال محلها البربرية . يقول الشيخ :" **إن العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام و معه العدل، وجاء بالعربية و معها العلم**

المنارة للاستشارات
ww

فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب ، ولكنه خضوع الأخوة لا خضوع القوة ، وتسليم الاحترام،لا تسليم الاجترام،والعلم هو الذي طوّع البربرية للعربية،ولكنه تطويع البهرج للجيدة،لا طاعة الأمة للسيدة " [35] .

و في موضع آخر يرد الشيخ بالقول :"وأما الحقيقة فهي أن الوطن عربي وأن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرؤونه بالعربية، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا .ولكن الظالمين لا يعقلون "[36] .

وتبعا لكل ذلك فقد سعى الشيخ الإبراهيمي إلى نشر العلم النافع والعمل به، إذ أن الأمة الجزائرية نالها عهد طويل استسلمت فيه للاستعمار وللجهالة وللأمية ، فتهلهلت و ضعف بناؤها ، ونشط فيها الفكر الطرقي وقوي حين وجد مناخا مناسبا ساعده على التغلغل والنفوذ شيئا فشيئا في أعماق بعض النفوس الضعيفة، بمباركة من المحتل،الذي تحامل على هذا الشعب المنكوب و زرع فيه بذور الاستسلام لواقعه المرير الذي لا يمكن دفعه كما يدعي الغاصب ، وذلك من أجل التمكين لوجوده الطويل في الجزائر .

لذلك بذل الشيخ في سبيل دحض هذه المخططات جهودا جبارة حيث أوفدته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1952في رحلة إلى المشرق من أجل السعي لدى الحكومات العربية و الإسلامية لاستقبال بعثات من طلبة الجزائر بغرض مواصلة الدراسة في مدارسها و جامعاتها ومعاهدها[37]، لتوكل لهم بعد ذلك مهمة نشر التعليم في الجزائر ، وقد اندرجت تلك المساعي كلها في إطار المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري التي يسعى المستعمر إلى طمسها .

و قد وعى الإبراهيمي أيضا ما للعلم من دور فعال في نهضة الأمم و السير بها قدما نحو برّ الأمان فعلّق على طلبة الجزائر آمالا كثيرة و كبيرة وأناط بهم مسؤوليات ثقيلة إعدادا لهم لحمل راية التغيير و مشعل التحرير فعمل على توجيههم التوجيه السديد و إعدادهم الإعداد السليم للتحصيل العميق ، فخاطبهم قائلا :" إنكم لا تضطلعون بهذه الواجبات إلا إذا انقطعتم لطلب العلم ، وتبتلتم إليه تبتيلا ،وأنفقتم الدقائق و الساعات في تحصيله ،وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال و بطون الكتب ، واستثرتم كنوزه بالبحث والمطالعة، وكثرة المناظرة والمراجعة ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار " [38] كما كان يذكرهم دائما بحق و طنهم عليهم وكيفية إفادته من طرفهم : " إنكم يا أبناءنا مناط آمالنا ومستودع أمانينا، نعدكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة ، ولاستحقاق الإرث ، وهو ذو تبعات وذو تكاليف ، وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح "[39] .

ختاما يمكن القول أن أهم ما يميز كتابات محمد البشير الإبراهيمي هو محافظتها في الأغلب الأعم على ثقافة المقاومة و حسّها النابض في كل مفردة أو عبارة انتقاها للتعبير عن أفكاره و الإفصاح عنها ، أو الإشارة من خلالها إلى

المنارة للاستشارات
ww

مشروعه النهضوي الطلائعي التحرري الذي عمد من خلاله إلى إحباط المخطط الاستعماري الغادر ، حين سعى الشيخ و بكل ما أوتي من جهد و قوة إلى إعادة تشكيل الفرد الجزائري و تربيته تربية متكاملة و إعداده ليكون سدا منيعا في وجه المستعمر ،وحاميا لتاريخ هذه الأمة وراعيا لحقوقها، ومعمّقا لانتماءاتها ،ووسيلة للتغيير، وعنصرا فعالا في مشروعه الحضاري الذي ارتضاه لأمته.

هوامش :

---

[1] - غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ط1 ،1968 ،ص9.

[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[3] - المرجع نفسه 54.

[4] - المرجع نفسه ص9.

[5] - فادية بلمليح ، تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر ،مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة بسكرة ع8 .

[6] -سعيد بورنان ، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر ، 1830-1962، دار الأمل ، ط2 2004 ص15.

[7] - المرجع نفسه ، ص17.

[8] - المرجع نفسه ، ص18.

[9] -المرجع نفسه ، ص24.

[10] - عز الدين اسماعيل و غيره، ابن باديس ، سلسلة نوابغ العرب ، نقلا عن سعيد بورنان ، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر، ص28

[11] -عبد الرزاق قسوم ، محمد البشير الإبراهيمي مهندس لفظ وفيلسوف معنى ، مجلة الموافقات ، العدد الرابع ،السنة الرابعة ، جوان 1995 ، ص440.

[12] - محمد البشير الإبراهيمي ، أنا ، مجلة الثقافة ، ع 87،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر،ص 32 .

[13] - شيبان عبد الرحمن ، الإمام محمد البشير الإبراهيمي و اللغة العربية ، مجلة الثقافة ، ع 87،ص 73.

[14] - العربي دحو ، إطلالات مقارب للأدب الجزائري الحديث،دار الهدى للطباعة والنشر،عين مليلة ، الجزائر ،ط2،2011 ص63.

[15] - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ،دار المعارف ، القاهرة ،دط،1963 ،ص173

[16] -عبد الملك بو منجل ،النثر الفني عند البشير الإبراهيمي،بيت الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1،2009 ،ص84

[17] - محمد البشير الإبراهيمي ،عيون البصائر ،ص14

[18] -المصدر نفسه ص379،381

[19] - عبد الملك بو منجل ،النثر الفني عند البشير الإبراهيمي،ص69

[20] - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ،ص486،487.

[21] -المصدر نفسه ، ص496.

المنارة للاستشارات
ww

[22] - المصدر نفسه،ص440
[23] - المصدر نفسه،ص 444
[24] -المصدر نفسه ،الصفحة نفسها
[25] -المصدر نفسه ،ص447
[26] - عبد الملك بو منجل ،النثر الفني عند البشير الإبراهيمي،ص76
[27] - محمد البشير الإبراهيمي ،عيون البصائر ، ص207
[28] -المصدر نفسه، ص213
[29] - المصدر نفسه ،ص293
[30] - المصدر نفسه ،ص298
[31] - المصدر نفسه ،ص168
[32] - آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ،ج3،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر،ط1،1981،ص188.
[33] - محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص13
[34] - المصدر نفسه ، ص213
[35] - المصدر نفسه ، ص214
[36] - المصدر نفسه، ص215
[37] - سعيد بورنان ، شخصيات بارزة في كفاح الجزائر ، ص139، 140
[38] - محمد البشير الإبراهيمي ،عيون البصائر ، ص208
[39] - المصدر نفسه ، ص207

المنارة للاستشارات
ww